الفصل السادس

أفغانستان.. ألم وأمل

أمير سعيد

باحث وصحفي مصري

أفغانستان.. ألم وأمل

أمير سعيد

الإبحار في القضية الأفغانية كالإبحار في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج؛ لا لقلة المادة المتوفرة عنها وإنما لكثرة الزبد فوق صفحة مائها، وما يقال عن القضية الأفغانية يتطابق مع ما يقال في الشأن العراقي؛ إذ الحاصل أن وكالات الأنباء ومراكز البحوث والدراسات الرئيسة في العالم، والتي يسيطر اليهود على جلّها، تمارس لعبتها التضليلية للعالم بقدر فائق من المهنية.

كان العالم في الماضي يعاني من قلة المعلومات حول قضايا حيوية كثيرة، فصار الآن يعاني من كثرتها وتدفقها وتعارضها غير هيابة من ملاحقة المنقِّحين لها؛ لأنها قد نجحت إلى حد بعيد في تضليلهم أيضاً، والخطة المعمول بها في هذا المضمار تتسم بقدر عال من الذكاء والواقعية المتلازمين، وتتلخص - حسبما نفهم مما يجري حولنا - في «أن أفضل وسيلة للحفاظ على سرٍّ من غيلة الإفشاء ليس ستره، وإنما إذاعته على نطاق واسع جوار كمٍّ هائل جداً من الأخبار المتوافقة والمتعارضة معه؛ ما يُصيِّره احتمالاً وارداً فقط.. لا بل ربما احتمالاً مستبعداً مقارنة بما هو أهم منه، ويحرم مفشيه - إن وجد - من سبق إذاعته»، وهذا ما أجد أننا نعاني منه عند دراسة القضية الأفغانية.

زد على ذلك أن الطرف المقابل في المعادلة الأمريكية/ الأفغانية (سواء مثَّلتها طالبان أو القاعدة) - أو الأمريكية/ العراقية - ليس أكثر وضوحاً من غريمه؛ لكونه - والعذر له - يواجه حالة حرب، و «الحرب خدعة» كما هو معلوم.

بيد أنه - وللإنصاف - يمكننا في كثير من الأوقات التعويل على جرأة الفريقين المتناحرين بأرض أفغانستان في تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية والمخططات بمراميها الأصلية الواضحة، فالحرب على أفغانستان وفقاً للرئيس الأمريكي جورج بوش هي «حرب صليبية»، ومقاومتها وفقاً للملا عمر زعيم الإمارة الإسلامية الأفغانية سابقاً هو «جهاد مقدس»، والعدوان الأمريكي هو لإطاحة حكم «طالبان» وتسليم زعماء هذا «الجهاد المقدس» ضد الولايات المتحدة إلى الطرف الأوفر قوة الأقل عدلاً، فيما يقف الطرف الآخر في جهة مقابلة مميزاً الناس - بنظره - «إلى فسطاطين(..) إيمان وكفر»؛ مشعلاً لهيب الحماسة في قلوب أتباعه لتنفيذ مخططه «بضرب مفاصل الاقتصاد الأمريكي»، ولإزاحة محتل استباح بلاد المسلمين.

وعلينا ونحن نعرض لهذه القضية ومفرداتها وأبعادها وتداعياتها ومستقبلها المستقرأ؛ أن نراوح بين

الارتكان إلىٰ وضوح القضية ـ علىٰ الأقل في قاسمها المشترك الأدنىٰ ـ؛ وبين استخدام مبضع الجراح في استئصال أورام الإعلام والدراسات الغربية الخبيثة.

وفي المستهل سنهب لأنفسنا فسحة من سطور معلومات لا بد منها؛ لمعرفة خطَي الطول والعرض اللذين تقف عليهما القضية الأفغانية.

أفغانستان: إطلالة معلومات:

أفغانستان بلد قُدّ من صخر أصم، تمثل مساحة المناطق الجبلية فيه ٨٥ ٪ من مساحته الكلية، ترتفع ذرىٰ جباله إلىٰ أكثر من ستة آلاف متر فوق سطح البحر، هذا البحر الذي لا تعرفه أفغانستان لكونها دولة قارية حبيسة دول ست.

تشترك أفغانستان مع ست دول في الحدود، وتتراوح تلك الحدود ما بين الاتساع حيث باكستان مسافة حدودها معها تقدر بـ ٢٤٦٦ كم في الشرق والجنوب، ودول آسيا الوسطىٰ المسلمة (تركمانستان، وطاجيكستان، وأوزبكستان) بمسافة ٢٣٨٣ كم في الشمال؛ والضيق حيث الصين التي تُقدّر حدودها المشتركة مع أفغانستان بنحو ٧١ كم في الشرق؛ مروراً بمسافة متوسطة مع إيران تبلغ حوالي ٨٤٩ كم في الغرب.

أرضها الوعرة لا يخالف طبيعتها سوىٰ تفجُّر مجموعة أنهار تنحدر من سلسلة جبال الهندكوش العملاقة، وهي مجموعة نهر آمودريا في الشمال، ومجموعة نهر «هري رود» في الشمال الغربي، ومجموعة «هلمند ـ أرغنداب» في الجنوب، وأخيراً مجموعة نهر كابل في الشرق.

ومسطح الغابات في أفغانستان لا تتعدىٰ مساحته ٥١٠ , ١٣ ألف كيلو متراً مربعاً من مجموع مساحتها الكلية البالغة ١ , ٦٥٢ ألف كيلو متراً مربعاً.

لم تكن ترجع أهمية أفغانستان في الماضي وقبل عقود لذاتها، وإنما لكونها تمثل مفتاح وسط آسيا، والجسر إلىٰ دول عريقة كالصين والهند وإيران وروسيا.

ووفقاً لتقديرات المنظمة الدولية للصحة والسكان لعام ٢٠٠٠م؛ فإن عدد سكان أفغانستان يبلغ ٦ , ٢٦ مليون نسمة؛ منهم أكثر من أربعة ملايين لاجئ؛ معظمهم في باكستان وإيران، وقليل منهم في أوروبا.

أما أعراقها المختلفة فقد خضع تعدادهم ونسبتهم للتزييف والتدليس؛ من قِبَل أصحاب الأهواء من الدول المجاورة؛ في غياب مؤسسات محايدة ولجان إحصائية مستقلة، حتىٰ تعذر الجزم بنسبة كل اثنية علىٰ حدة، غير أن الثابت والأكيد هو أن عرق الباشتون يمثل أغلبية السكان هناك، يليه الطاجيك فالأوزبك فالهزارة، ثم أقليات محدودة جداً من التركمان والإيماق والبلوش. ويمكن للزائر أن يميز بين الأعراق بسهولة من الملابس المختلفة، كما أن البنية الجسمية والبشرة تحددان العرق بنحو يسير من التدقيق.

وهذه الفسيفسائية العرقية تناظرها تعددية كبيرة في لغات الأفغان، حيث يتحدث الأفغان بأكثر من ٢٠ لغة؛ أهمها وأكثرها انتشاراً لغة الباشتو، وهي خليط من الأردية والعربية، ولغة الداري، وهي خليط من الفارسية والعربية.

أكثر من أربعة أخماس سكانها من المسلمين السنّة (٨٥ ٪)، ومعظم الباقين من الشيعة الإمامية (١٢٪)، إلى جوار قلة من الإسماعيلية (٢ ٪)، والهندوس والسيخ واليهود (١٪)[١].

وتبلغ نسبة الأمية في أفغانستان (٩٠٪) تقريباً[٢].

أما الدارسون في الخارج؛ فإن نحو (٧٠ ٪) منهم لا يعودون إلى بلادهم بعد انتهاء دراستهم[٣].

قبل الحرب كان في أفغانستان خمس جامعات؛ هي: جامعة كابل، وجامعة كابل الإسلامية، وجامعة جلال أباد، وجامعة هيرات، وجامعة بلخ. بيد أن التعليم الصامد دائماً في أفغانستان هو التعليم الديني المرتبط بالمساجد، والذي انتقل مع المهاجرين إلى باكستان لينال بعض منهم قسطاً منه في أثناء الغزو السوفييتي لأفغانستان، وبعد رحيل الغزاة عاد فريق منهم متمتعاً بقسط منه، كما هو الحال مع حركة طالبان التي ظهرت بعد انتهاء الاحتلال السوفييتي.

ويعيش معظم سكان أفغانستان على الزراعة التي تمثل معظم مورد البلاد الرسمي، فيما تمثل زراعة الأفيون فيها أوفر هذه الزراعات حظاً من المساحة المزروعة؛ وخاصة في أثناء الغزوين السوفييتي والأمريكي، وإبان حكومة «المجاهدين» في كابل حتى عام ١٩٩٦م، وثمة آمال عريضة يعقدها الأفغان على مؤشرات إيجابية من مرور خطوط أنابيب النفط في أرضهم، والمزمع مدها بين المصادر النفطية الواعدة في بحر قزوين وبين أوروبا الغربية «الصناعية»؛ علاوة على وجود النفط في مناطق مختلفة من البلاد، تعززه دلائل على اكتشافات نفطية جديدة في أفغانستان؛ إضافة إلى الاستثمار الجيد في مجال استخراج الغاز الطبيعي والتعدين بصفة عامة.

رحلة أفغانستان مع التاريخ والسياسة:

اسمها في ماضيها السحيق خراسان ـ حسب بعض المؤرخين ـ، أو أفغانستان في حاضرها الأليم، زارها الرحَّالان ابن حوقل وابن بطوطة، وكما زاراها لم تتغير كثيراً، جبالها الشماء، أنهارها، لباس أهلها، بل ثقافتهم؛ لم يطرأ على كل ذلك تغير كبير.

يعيش أهلها في قبائل مترحلة، وبدو يهرعون إلى المطر حيثما هطل، وممالك مبعثرة، وتجمعات متفرقة، وما التأم شعث كل أولئك إلا بعد أن نهض أحمد شاه عبد العليم دراني (أحمد خان الأبدالي) بمهمة توحيد تلك

(١) وفقاً لموقع الجزيرة على الإنترنت، وهي نسب تقديرية دار حولها الجدل لاختلاف مشارب ناشريها.
(٢) المنظمة العالمية للصحة والسكان.
(٣) في دراسة للباحث حسني حنا بجريدة العروبة الأمريكية.

الممالك المنثورة بين الجبال في بوتقة الدولة الأفغانية في عام ١٧٤٧م؛ بعد أن استتب له توحيد قبائل الباشتون العنيدة.

ومنذ ذلك التاريخ - وإلى فترة قريبة - ولمدة ٢٥٠ عاماً؛ ظلت قبيلة دراني قلب الباشتون تحكم أفغانستان، ولم تتخلف عن هذه السنّة إلا لنحو ٢٥٠ يوماً، حكم أفغانستان خلالها حميد الله إلى أن أُعدم على يد الملك نادر شاه.

وللمفارقة؛ فإن أول حكام أفغانستان وآخرهم بدأ بتوحيد أفغانستان انطلاقاً من قندهار وليس كابل مثلما يتبادر إلى الذهن، فما يشاع من القول بأن من يحكم كابل هو الذي يحكم أفغانستان؛ هو قاعدة عامة لها شذوذها التاريخي كما تقدم.

عانت أفغانستان خلال الـ ٢٥٧ سنة المنصرمة منذ قيامها خمس حروب خارجية والعديد من الحروب الأهلية، كان أولها في عام ١٨٣٩م عندما هاجمها البريطانيون فألحق الأفغان بهم الهزيمة بعد ثلاث سنوات من القتال، وبعد ٣٦ عاماً عاد الإنجليز مجدداً لغزو أفغانستان، فكانت الهزيمة من نصيبهم مرة أخرى بعد عامين من الغزو، غير أنهم عادوا لغزو أفغانستان للمرة الثالثة بعد أربعة عقود تقريباً ليلقوا المصير نفسه في عام ١٩١٩م، ويعترفوا في الأخير باستقلال أفغانستان.

وكانت الحروب الأفغانية البريطانية تقوم على خلفية تنافسية بين بريطانيا «العظمى» وروسيا القيصرية، والثابت أن هذه المنافسة قد حسمت لفترة لجهة الشرق (روسيا البلشفية)، والتي تمكنت فيما بعد من بسط نفوذها على أفغانستان؛ من خلال اتفاقيتي الصداقة الأفغانية - السوفييتية عامي ١٩٢١م، ١٩٧٨م، والأخيرة اتخذت ذريعة لغزو السوفييت لأفغانستان في عام ١٩٧٩م، ومن ثم تمت الإطاحة بنظام حفيظ الله أمين وإحلال كارمل بدلاً منه.

وكانت هذه هي الحرب الرابعة التي خاضتها أفغانستان بواسطة ميليشيات حزبية، وخلّفت أكثر من مليون قتيل أفغاني، وأربعة ملايين لاجئ، في مقابل نحو ١٥٠٠٠ قتيل روسي على الأقل وفقاً لإحصاءات روسيا نفسها. وما أن ولّت هذه الحرب بعد ١٢ عاماً من اندلاعها حتى بدأ النفوذ الروسي يتراجع في أفغانستان، وتتجدد مطامع الغرب في السيطرة على أفغانستان تارة أخرى؛ لكن هذه المرة عبر الدولة العظمى الوحيدة في العالم (الولايات المتحدة)؛ بعد أن أَفَلَت شمس «الدولة الأم بريطانيا» كما يسميها الأمريكيون.

وقد بدأ الغزو الأمريكي لأفغانستان في عام ٢٠٠١م بدعوى ملاحقة «الإرهابيين» في أفغانستان، وحرمانهم من الحصول على ملاذ آمن هناك؛ بعد أن وجهت لمنظمة القاعدة مسؤولية أحداث سبتمبر في العام نفسه.

خمس حروب وصراعات مع المحتلين، تخللتها صراعات أهلية حزبية ومذهبية وقبلية بين رفقاء الدين والسلاح في أفغانستان؛ كان أبرزها الصراعات التي جرت للسيطرة على البلاد وولاياتها ومديرياتها ومقدراتها

بين تنظيمات وميليشيات «المجاهدين» في أفغانستان؛ في أعقاب سقوط النظام الشيوعي في البلاد ورحيل الروس عن كابل في عام ١٩٩٢م.

وتبدأ أولى حلقات هذا الصراع الداخلي الأفغاني منذ بدأ الغزو السوفييتي لأفغانستان؛ حيث تضافرت جهود كثيرة لقيام المقاومة الإسلامية للغزو السوفييتي وأذنابه في كابل، وهذه المقاومة وتلك الجهود لم يكن كلها ينهل من معين صاف، فبعضها اعتراه كدر القبلية والولاءات الحزبية، وبعضها كانت علاقته بأجهزة استخبارية وقوى دولية وإقليمية ليست فوق حد الاشتباه، فيما كان السواد الأعظم من عناصر المقاومة الإسلامية للغزو ـ على الأقل في سنوات الجهاد النقية الأولى ـ ينطلق من عقيدة إسلامية تعلي واجب الجهاد، وتقدّمه على غيره من الأهداف.

كان قادة المقاومة الأولى إفرازاً طبيعياً لبيئة تتحدى الغريب؛ وخاصة إذا عمد هذا الغريب وأزلامه إلى الدين وأهله فأهانهما وأعمل في أركانه معاول العلمانية والشيوعية الهدامة، ولم يكن من الغريب أن تتزاحم شامات الكاريزما في شخصيات قادة المقاومة الإسلامية، فبعضهم من خريجي جامعة الأزهر الشريف التي كانت ـ في ذلك الوقت ـ تحظى باحترام وإجلال المسلمين في آسيا الوسطى وما حولها؛ وهو الأستاذ برهان الدين رباني، ومنهم الثائر الهارب من حكم بالإعدام؛ وهو المهندس قلب الدين حكمتيار خريج كلية الهندسة بجامعة كابل، وأحد أبرز نشطاء الحركة الطلابية فيها، ومنهم من يتمتع «بحصانة» المدرسة الدينية التقليدية في أفغانستان؛ وهو المولوي محمد نبي محمدي، ومنهم العالم المسنّ الوقور؛ وهو الشيخ يونس خالص، ومنهم «سليل» الحركات الصوفية؛ وهو صبغة الله مجددي، ومنهم القريب من الحركة الإسلامية الأكبر في العالم؛ وهو الأستاذ عبد رب الرسول سياف، ومنهم «أسطورة» الكر والفر ورفيق حكمتيار في نشاطه الطلابي وزوج بنت رباني؛ وهو المهندس أحمد شاه مسعود الملقب «بأسد بانشير».

بدأ الغزو في ٢٧/ ١٢/ ١٩٧٩م، وانجاب الكرى عن عيون الطلاب، واستأذن حكمتيار قائد الحركة الإسلامية في ذلك الوقت برهان الدين رباني أن يعلن الجهاد، فأبطأ رباني ـ وفقاً لرواية شيخ المجاهدين العرب الدكتور عبد الله عزام التي أوردها في كتابه (آيات الرحمن في جهاد الأفغان) ـ فأعلنه حكمتيار، ولحقه رباني، واختلفا، فصار الأول يقود (الحزب الإسلامي) والثاني يقود (الجمعية الإسلامية)، ومضت الأيام وفصائل المقاومة تتشظى، حتى صارت أبرز الحركات الرئيسة في أفغانستان هي:

الحزب الإسلامي: بقيادة المهندس قلب الدين حكمتيار، وتمايزت عناصره فصار معظمهم من الباشتون، وكان الأقوى تسليحاً والأضبط تنظيماً، وتضخمت قواته حتى صارت تضم نحو ٤٠ ألفاً من المقاتلين قبل انهيارها على يد طالبان عام ١٩٩٦م، اتُّهم كثيراً بالارتباط باستخبارات باكستان وزراعة الأفيون (ينفي دوماً التهمة الثانية عن نفسه).

الجمعية الإسلامية: بزعامة الأستاذ برهان الدين رباني، ويقود قواتها القائد الميداني الراحل الجنرال أحمد شاه مسعود (يقودها الآن الماريشال أحمد فهيم وزير الدفاع الأفغاني الحالي)، وتقدَّر حجم تلك القوات بنحو ٢٥ ألف مقاتل قبل غزو أمريكا لأفغانستان. وللجمعية علاقات حميمة مع روسيا والهند وطاجيكستان؛ وأخيراً مع الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن زعيمها العسكري الراحل ـ خريج المدرسة الفرنسية بكابل ـ كانت له علاقات «أكثر من متميزة» مع فرنسا ومنظماتها «الإنسانية».

الحزب الإسلامي: جناح يونس خالص، أيضاً جل عناصره من الباشتون، يختلف مع توجهات حكمتيار لأسباب يسأل عنها، ويقال إن معظم عناصره قد انضمت فيما بعد إلى صفوف حركة طالبان.

الاتحاد الإسلامي: بزعامة عبد رب الرسول سياف صاحب الصوت الأعلى بين الإسلاميين الأفغان في العالم العربي، وينحدر معظم أتباعه من الباشتون ـ خاصة في ولايات الباشتون الشمالية الصغيرة ـ، لا يعرف عنه ارتباطات استخبارية معينة؛ بيد أنه اتخذ موقفاً غامضاً في أثناء الغزو الأمريكي، فُسّر بأنه يُقر الغزو (ربما أراد سياف أن يمسك العصا من وسطها في الصراع الحالي؛ لما أيقن بصعوبة منازلة أمريكا، أو انطلق من بغضه السابق لحركة طالبان التي اضطرته للتقهقر)، ولا تعد ميليشياته قوة معتبرة هذه الأيام.

حزب الوحدة الشيعي: بزعامة عبد العلي مزاري (قتلته طالبان على الأرجح في مارس من عام ١٩٩٥م)؛ ثم الحالي عبد الكريم خليلي، لحق بالمقاومة في وقت لاحق، وغني عن البيان أنه مرتبط بإيران، ويتلقى منها ـ وإلى الآن ـ دعماً عسكرياً ولوجيستياً، ولا يتجاوز حجم قواته عدة آلاف.

الحركة القومية الإسلامية: (أو الميليشيات الأوزبكية، أو ميليشيات الجوزجان)، يقدر تعدادها بنحو ٤٠٠٠٠ مقاتل، ومعهم ٣٠٠ دبابة و١٥ طائرة، وتعد هذه الميليشيات من أكبر القوى المسيطرة على زراعة المخدرات وتجارتها. ويتزعمها عبد الرشيد دوستم نائب وزير الدفاع الأفغاني الحالي، وهو متهم بارتكاب جرائم حرب رهيبة ضد المسلمين أثناء الغزو الأمريكي ٢٠٠١م، قدرت جريدة «إندبندنت» البريطانية ضحاياه بحوالي مائة ألف قتيل وبضع مئات ألوف من الجرحى، ويعتبر دوستم المسؤول الأول عن مذبحة قلعة «كالاي غانجي»؛ حيث جرى قتل مئات الأسرى من جنود طالبان؛ بعد أن حصلوا على عهد أمان عندما اقتربت قوات «دوستم» من «قندهار» لبضعة أيام أواخر شهر نوفمبر ٢٠٠١م، وخلافاً لعهد الأمان أمر «دوستم» بقتل ستمائة أسير وهم مقيدون بالحبال من أرجلهم وأيديهم، بعضهم بالرصاص، وبعضهم بالسكاكين، وبعضهم هَرْساً، وكانت القوات الجوية الأمريكية تحمي من الجو وتغطي. و «دوستم» له علاقات جيدة بأوزبكستان وتركيا والولايات المتحدة مؤخراً. وهذه الحركة ليست حركة إسلامية بالمعنى المعروف، وإنما تسمَّت بهذا الاسم حتى يمكن أن تشارك في حكومات «المجاهدين» المتلاحقة على خلفية أيديولوجية مقبولة! كانت إحدى أعمدة الحكم الشيوعي، ولحقت بالمقاومة قبل أشهر فقط من انهيار نظام نجيب الله الشيوعي (آخر حكّام أفغانستان الشيوعيين الذي أعدمته طالبان علنياً فيما بعد، في ٢٧/ ٩/ ١٩٩٦م).

هذا هو المشهد قبل رحيل الروس عن أفغانستان في أبريل ١٩٩٢م، ولقد ازداد المشهد قتامة وفرقة وعصبية وانحيازاً عن جادة الحق؛ بعد رحيل الروس وانكشاف أبعاد القضية الأفغانية في حيزها المحلي الممتد بحبال سُرية في جهات العالم الأربع. ولأن الحركة سنَّة الكون فقد أذن الله لهذه الصورة أن ترحل؛ إذ كانت الساحة مهيأة لمولود جديد، كانت الظروف الدولية والإقليمية والمحلية تؤشِّر جميعها لضرورة حلحلة الموقف، وتغيير مفردات الأزمة الأفغانية للخروج بها من حالة التعفن السياسي والحزبي التي دامت عليها لسنوات.

الموقف الدولي الذي ساهم في بروز طالبان و إمكانية تكراره مستقبلاً:

نظر الشعب الأفغاني إلىٰ فصائل «المجاهدين» فمقتها إلا بقايا من أهل الديانة، وبوسعنا أن نقول إن الشعب الأفغاني كان تواقاً لرؤية عناصر غير ملوثة بحطام الغنائم، وثقلة الفساد، وجبروت الحكم، غير أن النيات الطيبة لا تحقق وحدها الأماني.

وما تتوق إليه الشعوب البائسة غالباً لا يوجد في أجندة القوىٰ الدولية والإقليمية حقيقة إلا بقدر ما يحقق لها مصالحها، وإلا غرَّدت تلك الدول خارج سرب الشعوب الضعيفة، ووقفت حجر عثرة أمام تطلعات تلك الشعوب؛ لذا فإنه يحدونا الاعتقاد بأن جملة من العوامل الخارجية أثَّرت في نشأة طالبان ودفعت خيولها لتمضي في الأرض فاتحة قلاع الفصائل الفاسدة. وإذا كنا نعتقد أن اندفاع هذه الحركة كان من ذاتيتها المطلقة لمّا رأت دماء شهداء الجهاد الأفغاني وقد خانها رفقاء الجبهة وقادة المقاومة؛ فإنها ما كان لها أن تنطلق بهذه السرعة، وبهذه الإمكانات إلا ومن خلفها تأييد مكتوم أو علىٰ الأقل من ورائها من يغضّ الطرف عن انطلاقتها هي؛ وفقاً لحساباته التي ربما عضّ أصابع ندمه وحسرته علىٰ خطئها فيما بعد.

ويمكننا أن نرصد عدداً من العوامل الداخلية والإقليمية والدولية أدت إلى ترك الباب مشرعاً أمام فتوحات طالبان الخاطفة؛ فيما يلي:

العامل الأول: أن الشعب الأفغاني المسلم قد سئم من الحرب المجنونة بين الفصائل الأفغانية، والتي استمرت لأكثر من ثلاث سنوات، وأتت علىٰ الأخضر ـ إلا الأفيون ـ واليابس، فقد خلف القصف المتبادل بين حكمتيار ومسعود في كابل فقط أكثر من ٥٠ ألف قتيل من المدنيين المسلمين الأبرياء، وأدىٰ ذلك إلىٰ تدمير أكثر من (٧٠٪) من العاصمة الأفغانية، وتشريد لاجئين جدد؛ بدلاً من إعادة الملايين الأربعة المقيمين في أوضاع مأساوية علىٰ الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، والأفغانية ـ الإيرانية. فأراد الشعب الأفغاني أن يشهد نوعاً من الاستقرار والهدوء علىٰ أيدي «طلاب دين أتقياء».

العامل الثاني: أن طعم العلقم في أفواه المسلمين عموماً؛ كان الأفغان يشعرون بأضعاف مثيله لما رأوا حلم «دولة الإسلام» التي كانت قلوبهم تهفو إليها قد سلبه الفاسدون من مآقيهم، وهذا الأثر لا نغفله لشعب مسلم ظلَّ لقرون يثور علىٰ قادته كلما بعدت بهم أقدامهم عن جادة الحق، ولا يذعنون لملك أو رئيس لا يبايعه

علماؤه. فبغضّ الطرف عن أي لأواء كان يشعر بها الأفغاني الفقير؛ فإنه كان لا يريد خسارة الآخرة بعدما خسر دنياه على يد السوفييت وفصائل المقاومة؛ إذ كانت أفغانستان تعجُّ بألوان الفساد الأخلاقي والاجتماعي - إضافة لزخات الرصاص -؛ فقد تحول بعض عناصر الميليشيات المسلحة التابعة للأحزاب الأفغانية إلى قطاع طرق، وأَخذت الإتاوات المجحفة تُفرض على الأفغان المساكين الذين يمرون في المناطق التي يسيطر عليها المقاتلون (كان هناك على سبيل المثال ٧١ نقطة سيطرة بين شامان وهيرات)، ومارس الكثير منهم السلب والنهب وتهريب المخدرات تحت ذريعة تأخر رواتبهم. وقد تأثرت ولاية قندهار أكثر من غيرها نتيجة ضعف الأمن وفقدان الشرعية، وجرت حوادث التعرض للنساء واغتصابهن، وأثار هذا شعور بالمرارة وسط طلبة (طالبان بلغة الباشتون) وملالي المدارس الدينية. كما أن تبديل بعض قادة الأحزاب الأفغانية لتحالفاتها بصفة دورية؛ أثار شجون القوم بأن هؤلاء طلاب دنيا وكراس ليس أكثر (يلاحظ المراقب للشأن الأفغاني أن أحد هؤلاء القادة، وهو قلب الدين حكمتيار، تحالف مع كل الفصائل تقريباً؛ بما يشي بأن الرجل لا يعرف ما يريده بالضبط على أحسن الظنون؛ فهو قد تحالف على فترات متفاوتة مع مسعود ودوستم ومزاري وسياف وخالص.. وأخيراً مع الملا عمر!!).

العامل الثالث: أن باكستان التي تعد الحليف (المستغَل) الأول لأمريكا في جنوب آسيا؛ نفضت يدها عن قلب الدين حكمتيار - ومن قبله سياف وخالص وجميعهم من الباشتون - لتقلباته الشديدة وتعذر قياده أو حتى توجيهه بسلاسة، ومن ثم فهي قد باتت فقيرة إلى حليف باشتوني يؤمّن لها حدودها، ويضمن لها الوقوف في وجه توسع هندي؛ اتساقاً مع العلاقة الحميمة التي تربط مسعود بالهند، وتطمئن معه لتجارتها المرجوة مع دول آسيا الوسطى.

العامل الرابع: أن استخبارات باكستان ليست كلها رهينة الفلك الأمريكي، بل إن بعض أجنحتها يضم إسلاميين لهم توجُّه يخالف في كثير من الأحوال توجهات الدولة القريبة من الإدارة الأمريكية؛ لذا فقد عمد برويز مشرَّف في بدايات الحملة الأمريكية على ما يُسمَّى بالإرهاب إلى صفوف أجهزة الاستخبارات الباكستانية؛ فأخرج منها من بدا أن له توجهاً إسلامياً، وهذا يقود إلى الظن بأن ثمة عناصر استخبارية باكستانية حقيقة - لا وفق التقارير الصحفية فحسب -؛ كانت مؤيدة لطالبان، أو على الأقل كانت مؤيدة لظهورها، وربما أسهمت فعلياً في تسليحها وتقديم الدعم العسكري واللوجيستي لها.

العامل الخامس: أن باكستان كانت تدرك أنها ما لم تحفظ لها موضع قدم في أفغانستان مع بعض الفرقاء؛ فستفقد جميع تضحياتها التي قدمتها قرباناً للحؤول دون الامتداد الروسي والهندي والإيراني في أفغانستان، وأن عدم إمساكها بتلابيب الموقف الأفغاني سيقود أفغانستان - إذا ما تعذر الصلح بين الفرقاء - إلى تقسيم البلاد، وهو ما يعني لدى باكستان تسخيناً لنزعة الاستقلال التي تبديها قوى في إقليم «سرحد» الذي يقطنه الباشتون، وفيه مجموعة حركات تحمل اتجاهات انفصالية عن باكستان، وتنادي بالعلاقة التاريخية الواحدة مع أفغانستان،

ومن شأن تباطؤ باكستان عن التحرك في أفغانستان أن يقوي تلك النزعة.

العامل السادس: أن علمانيي باكستان ـ وعلىٰ رأسهم رئيسة باكستان إبّان صعود طالبان بينظير بوتو ـ؛ كانوا مدركين لاستحالة استبدال فصيل يؤسَّس علىٰ أرضية علمانية بحكمتيار ذي الخلفية الإسلامية شبه المستقلة، وأن البديل المقبول ـ ولا غيره ـ هو بديل «أكثر أصولية من حكمتيار»؛ كيما يحظىٰ بدعم شعب أفغانستان المتديّن، وإذا كان حكمتيار له قرب من الأستاذ قاضي حسين أحمد «أمير الجماعة الإسلامية الباكستانية» (مؤسسها المفكر الكبير أبو الأعلىٰ المودودي)، والتي لها بعض صلات بأحد أجنحة مؤسسة الاستخبارات العسكرية الباكستانية (I.S.I)، ورجلها القوي حميد جول المعني بالملف الأفغاني لأكثر من عشر سنوات؛ فإن البديل لا يتجاوز المدرسة الفكرية الأخرىٰ في باكستان، وهي «جمعية علماء إسلام» تحت زعامة «مولوي فضل الرحمن»، والتي لها ارتباط بوزارة الداخلية الباكستانية ووزيرها السابق نصير الله بابر؛ إضافة لبعض متنفذي الاستخبارات الباكستانية(١).

العامل السابع: يتمحور حول المدارس الدينية في باكستان، والتي لم تكن يوماً غائبة عن الاستراتيجية الباكستانية؛ فيما يخص التعبئة الشعبية في بعض الأقاليم الباكستانية لإنجاز حزام إسلامي سنّي قبالة الحدود الأفغانية والحدود الهندية؛ يحمي باكستان من غائلة امتداد النفوذ الروسي والهندي والإيراني إلىٰ الداخل الأفغاني، ويعلي من فرصة تحويل جزء من هؤلاء الطلبة الدينيين إلىٰ جهة أخرىٰ تذكي أوار الثورة الإسلامية في كشمير، وتؤجج روح الجهاد فيها بعيداً عن التدخل العسكري الباكستاني المباشر.

العامل الثامن: أن الولايات المتحدة بعد أن نجح المقاتلون الأفغان في إسقاط الاتحاد السوفييتي؛ لم تجد لديها مانعاً من تشكيل حكومة لها طابع إسلامي محافظ في أفغانستان، حيث يتسق ذلك مع رؤيتها لإمكانية تلاقيها مع قوىٰ إسلامية محافظة وتقليدية؛ مثلما هو الحال مع حليفاتها الاستراتيجية في الشرق العربي، أو «انفتاحية جداً»؛ مثلما هو الحال مع العدالة والتنمية التركي (أردوغان). شريطة ألا تشب هذه الحكومة عن الطوق الأمريكي وتهدد مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، أو تنسف استراتيجيتها الثابتة؛ بالحؤول دون قيام دولة إسلامية حقيقية ذات توجه مستقل في أي بقعة من العالم، ولذا فلم تجد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مدفوعة لرفض المقترح الباكستاني بقبول حكومة طالبان التي يراها الباكستانيون تحت السيطرة؛ نظراً لحاجتها الماسة إلىٰ باكستان، وعدم توفر تلك الحركة علىٰ عناصر تكنوقراطية وكفاءات عسكرية وإمكانات استراتيجية متطورة تمكّنها من قطع حبال الود مع باكستان.

---

(١) لا يعني هذا الكلام أن الحركات الإسلامية الباكستانية هي أسيرة الاستخبارات الباكستانية، ولا أن تلك الأجهزة الاستخبارية مؤيدة للحركات الإسلامية؛ إذ إن للاستخبارات الباكستانية صلات أكثر حميمية بجهاز الاستخبارات الأمريكي (C.I.A)؛ وإنما ما جرىٰ وما يجري علىٰ الصعيد الباكستاني والأفغاني والكشميري هو في معظمه يعد من قبيل التقاء مصالح هذه الأطراف.

العامل التاسع: أن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت من صمتها على قيام طالبان؛ أن توفر لأفغانستان استقراراً مرجوّاً لمشاريع نفطية وتجارية طموحة تمر عبر أفغانستان وتستلزم استقرارها، ويدخل في هذا الإطار الاستكشافات النفطية الكبيرة في بحر قزوين قريباً من تخوم أفغانستان، والتي يُتوقع على أي حال أن يكون ثمة وجود للشركات الأمريكية ـ مثل «يونيكال» وغيرها ـ فيها، ويتعارض التشرذم الأفغاني مع سقف الطموح الاقتصادي الأمريكي في وسط آسيا.

العامل العاشر: أن إيران لم تكن مدعوَّة للبت في الشأن الأفغاني؛ بعد أن أخفق حزبها في أفغانستان «حزب الوحدة الشيعي» في إيجاد موضع قدم على الخريطة الأفغانية؛ بعد أن زلت تلك القدم في تحالفات موغلة في عبثيتها أدت إلى ضياع الصوت الشيعي في تقرير مصير أفغانستان، إضافة إلى تأثرها بمشكلة بحر قزوين الشائكة، والتي تتصارع عليها خمس دول إضافة للولايات المتحدة الغائب الحاضر في «البحيرة المغلقة» (بحسب التعبير والتصور الأذربيجاني للبحر)؛ نظراً لما تعانيه إيران من مشكلات اقتصادية داخلية تنذر بقلاقل ما لإيران ـ خصوصاً في ضواحي طهران الفقيرة، وفي إقليم بلوشستان الحدودي السنّي ـ ما لم يتم ضخ موارد اقتصادية جديدة في شريان الدولة الإيرانية.

العامل الحادي عشر: يتلخص في أن روسيا أصبحت ذات يد ضعيفة في تحريك الوضع في أفغانستان ـ وكذا الهند ـ، نظراً لوضعهما البيض في سلة طاجيكية وأوزبكية تناطحان قرن التاريخ الصلب المعتاد على أن يكون الباشتون هم سادة الحكم في أفغانستان.

وإذا كان هذا هو الحال قبل بزوغ طالبان؛ فإن الوضع قد تغير كثيراً عند الإطاحة بها لأسباب كثيرة؛ منها على سبيل المثال:

أولاً: أن طالبان التي ظن بعض من صنّاع القرار في واشنطن وإسلام أباد أنها رهن إشارتهما؛ أصبحت عصية على التطويع؛ خاصة فيما يخص نشاط المتطوعين العرب الذين لفظتهم حكومة الجمعية الإسلامية بزعامة رباني، ووجدوا ملاذهم الآمن عند حركة طالبان، ومن ثم نُظر إلى تبني طالبان لهم وتحالف الحركة مع تنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن الذي تعتبره واشنطن المطلوب رقم واحد في العالم؛ على أنه تحدٍ مباشر للدولة العظمى في العالم، كما أنه استدعى قلقاً رسمياً عربياً لوجود بعض حركات المعارضة الإسلامية في كنف طالبان.

ثانياً: أن العديد من دول الجوار الأفغاني ـ باستثناء باكستان ـ التقت مصالحهم على إطاحة طالبان؛ بالنظر إلى كونها باتت تمثل تهديداً قوياً لمصالحهم، فالهند رأت في تلقي بعض الثوار المسلمين في كشمير لتدريبات في معسكرات طالبان والقاعدة حافزاً كبيراً لتقف بوجه طالبان. وروسيا نظرت للإمارة الإسلامية الأفغانية التي

كانت الدولة الوحيدة في العالم التي اعترفت بجمهورية الشيشان؛ على أنها مصدر تهديد لأمنها القومي، وأنها تمثل قاعدة خلفية قوية للمجاهدين الشيشان، وتمتد مخاوف روسيا إلى حليفاتها المهددة بالقوى الإسلامية في آسيا الوسطى؛ سواء كان ذلك في أوزبكستان أو طاجيكستان اللتين كانتا تتهددهما حركتا معارضة إسلامية قوية إبان حكم طالبان. والصين ظلَّت منزعجة للتأييد الذي كانت تلقاه حركة تحرير تركستان الشرقية الإسلامية (يُسمّى بإقليم سالانج الصيني، ويقطنه ما بين ٨ ملايين : ١٢مليون مسلم) من الإمارة الإسلامية الأفغانية. وإيران التي أذلَّت حركة طالبان حزبها الشيعي «حزب الوحدة» في أفغانستان، وقتلت قائده عبد العلي مزاري - على الأرجح -، وقتلت ثمانية من عناصر الاستخبارات الإيرانية التي كانت تتدثر بأردية دبلوماسية في أفغانستان، وتعاملت مع الشيعة الهزارة في أفغانستان من منطلق عقدي لا أمل في تبدله انطلاقاً من حسابات السياسة المتقلبة؛ لا ترضى أيضاً بأقل من الإطاحة بطالبان. ولا شك أن طموحات طالبان بتبني جميع الحركات الجهادية في آسيا الوسطى والقوقاز - والتي كانت إذاعتها بكابل تحرص على بث نشيد طلابي يقول: «لا تجلس في كابل، أنصارك في طشقند وبخارى ينتظرونك» - كانت حافزاً لتكالب جميع الدول المجاورة عليها.

ثالثاً: أن الإمارة الإسلامية الأفغانية حادت عن طريق الأمريكان ومصالحهم بتقديم عطاءات نفطية لشركات نفطية عالمية؛ منها شركة أرجنتينية إلى جانب شركة «يونيكال» الأمريكية، وأوشكت أن تتجاوز الخط الأحمر بعد أن ذكرت تقارير استخبارية أنباءً شبه مؤكدة؛ أن الملا عمر كان بصدد إسناد هذا العطاء للشركة الأرجنتينية، وهو ما كان سيترتب عليه حرمان الولايات المتحدة من احتكار الامتيازات النفطية في مجمل منطقة آسيا الوسطى.

رابعاً: أن الإمارة الأفغانية أطاحت بحلم «السيطرة على تجارة الأفيون» في منطقة آسيا الوسطى، وقد يبدو هذا الكلام غريباً لما تدعيه الولايات المتحدة الأمريكية دوماً من مقاومتها لانتشار زراعة وتجارة الأفيون والهيروين في منطقتي آسيا الوسطى وجنوبها؛ بيد أن وجه الغرابة يزول إذا ما وُضع بالاعتبار تورط الولايات المتحدة المباشر - وكذا باكستان - في هذا الاستثمار المشين. (وتبقى هذه النقطة بحاجة إلى تفصيل نورده إن شاء الله في حديثنا عن استراتيجيات القوى في المنطقة).

خامساً: أن الإمارة الأفغانية برغم كل هذه «المساوئ» بنظر مناوئيها؛ ترتكن إلى أساس لا يمكن القفز فوقه، وهو توافرها على تأييد أغلبية الباشتون، وكل المحاولات لإيجاد بديل لها في هذه العرقية الممتدة عبر الحدود داخل باكستان؛ قد باءت بالإخفاق الذريع[1].

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن باكستان وأيضاً الولايات المتحدة تقفان على أرض رخوة في أفغانستان؛ لأنهما - كما تقدم - يدوران عكس عقارب الساعة التي كانت دوماً مع الباشتون ضد حكم غيرهم.

---

(١) تعد أقلية الباشتون داخل باكستان أكثر من عشرين مليون نسمة، يساوون تقريباً عدد سكان أفغانستان إذا ما استثنينا اللاجئين منهم في خارج أفغانستان.

سادساً: أن الولايات المتحدة وباكستان برغم أحلامهما الوردية «باختراق» صفوف طالبان، كما ظلت تقارير وكالات الأنباء تمطرنا وتبشرنا به، قد ذهبت جهودهما أدراج الرياح، ولما ظلَّت السنوات الثلاث الماضية بدون تمثيل جدي للباشتون في نظام الحكم الأفغاني الموالي للولايات المتحـدة الأمـريكية؛ فإن المنسم الأفغاني لا نراه مستقراً للأمريكان ولا الباكستانيين، وعليه يظل وضع طالبان قوياً رغم غيابهم عن الساحة السياسية.

سابعاً: أن الطموح الاقتصادي الذي يعوّل عليه الأمريكيون والباكستانيون باستقرار أفغانستان لم يتحقق؛ بسبب حالة اللاسلم واللاحرب التي تمر بها أفغانستان حالياً، ومن ثم فإن الولايات المتحدة معوزة لتحريك الوضع في أفغانستان لجهة الاستقرار، وقد تجد نفسها في الأخير مضطرة للتعامل مع قوىٰ باشتونية قريبة من طالبان، غير أن طالبان تسد هذا الباب تقريباً مسبقاً بإعلانها البيعة للملا عمر «كأمير للمؤمنين»؛ بما لا يجوز معه التفاوض حول مشاركته له الحكم، وتسده بتصريحاتها النارية التي يطلقها موقعها دوماً عن رفض التفاوض مع الأمريكان؛ باعتباره خديعة لا تخفىٰ عليها بعد أن نجحت بتحقيق نجاح كبير في الميدان(١).

طالبان بين الثناء والهجاء:

«طالبان: نموذج لاختزال الإسلام وابتذاله» الكاتب فهمي هويدي، عنوان مقال نشر في العديد من الصحف والمواقع العربية).

«طالبان: خروج من التاريخ واستغناء عن الذاكرة!»، الكاتب محمد حسنين هيكل (مجلة وجهات نظر القاهرية).

«ليس في إمكان أي ناظر بالعدل إلا أن يشيد بموقف طالبان ـ الإسلامي الذي هو في الوقت نفسه الموقف الإنساني والموقف الصحيح سياسياً ـ من بقايا المجاهدين العرب» الدكتور سفر الحوالي الرئيس السابق قسم العقيدة بجامعة أم القرىٰ (موقع الدكتور سفر الحوالي).

«حكومة طالبان رسخت سيادة القانون في أفغانستان، وأوقفت تجار السلاح والمخدرات، وأسست القوة أو السلطة المركزية حول (٩٥٪) من أفغانستان، ويعتبر هذا إنجازاً ممتازاً ومجيداً من وجهة نظر باكستان» حميد جول رئيس الاستخبارات الباكستانية السابق والمعني بملف المجاهدين، (قناة الجزيرة).

«أعتقد أن توفير الأمن بعد ٢٠ سنة من الحروب الأهلية.. هذا في حد ذاته إنجاز ـ من وجهة نظري ـ كبير» د. نورهان الشيخ مدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة؛ وخبيرة الشؤون الروسية، (ندوة عقدها موقع إسلام أون لاين).

---

(١) ليست أفغانستان البلد الفقير المدقع سوىٰ معبر لطموحات الأمريكيين الاقتصادية؛ حيث لا يمثل بذاته مطمعاً لأحد في الاستيلاء عليه.

«لقد التقى الوفد الإسلامي خلال الزيارة بعلماء طيبين، لكنهم يعيشون في الماضي ولا ينتمون للحاضر، ولا يعرفون شيئاً عن العصر ومشكلاته، ولا زالوا يعتمدون على الكتب التراثية الصفراء القديمة، وأقوال المتأخرين في المذهب الحنفي، ولا يعتمدون كثيراً على مقاصد الشرع وقواعد الفقه» الدكتور يوسف القرضاوي (تصريحاته لدى عودته من أفغانستان عام ٢٠٠١م).

هل جاءت طالبان ضد التاريخ بالفعل، أو جاءت تحمل عبقه وبهاءه؟ قد لا تكون حركة طالبان هي منتهى الطموح الإسلامي، لكنها لا شك كانت محاولة ألقت عليها الآلة الإعلامية الصهيونية عباءتها القذرة فلم يُر منها إلا ما يشين المسلمين، ومقتضى العدل أن يتم تقويم أي تجربة وفق ظروف نشأتها وبيئتها والتحديات التي تحدق بها أو تنهشها بالفعل.

نشأة طالبان:

لم تسلم طالبان من لمزها بالعمالة لباكستان، أو وصمها بأنها صنيعة باكستان، والغريب أن معظم من يصمها بهذه العلاقة ـ كالتحالف الشمالي الأفغاني والعديد من الكتَّاب العرب ـ له علاقات ليست بريئة مع جهات لا تحمل للإسلام وداً، كالولايات المتحدة الأمريكية والهند وروسيا ونظامي طاجيكستان وأوزبكستان الموالين لروسيا، على أن ذلك لا يعني أن الحركة كانت متلبسة بهذه العلاقة حتى أخمص قدميها.

وهناك روايتان لنشأة طالبان:

الرواية الأولى: وردت على لسان الملا عمر نفسه وبعض أركان الإمارة الأفغانية ـ وفقاً لما جاء في موقع الإمارة الأفغانية على شبكة الإنترنت ـ، وهي أن الحركة نشأت أصلاً وفقاً لفكرة اختمرت في ذهن الملا عمر في يوليو من عام ١٩٩٤م؛ بعد أن فكر في الفساد المستشري في ولاية قندهار، ورأى أنه لا بد من وضع حد لهذا الفساد الذي أشاع الفوضى والإخلال بالأمن في ربوع البلاد، ودعا بعض طلاب المدارس الدينية فوافقوا على العمل للقضاء على هذا الفساد، حيث كانت القوافل الإنسانية تتعرض للنهب والسلب، أو على الأقل تتعرض لفرض إتاوات. كما أن الدماء الإسلامية الحارة قد جرت في دماء الملا عمر ورفاقه؛ بعد تكرار حوادث اغتصاب لمسلمات عفيفات على أيدي قطاع الطرق الخاضعين لما يُسمَّى بسلطة «حكومة المجاهدين»، وأن نجاح الحركة المتكرر في بسط الأمن قد أغرى الطلاب بتكرار التجربة حول قندهار؛ وسط ترحاب من الأهالي الذين عانوا من جبروت المسلحين، وتفيد تلك الرواية بأن عدة محطات نقلت الحركة إلى مصاف القوى الرئيسة في البلاد:

المحطة الأولى: مبايعة مجموعة مكونة من ٥٣ طالباً للملا عمر في أحد مساجد منطقة «سنج سار» بقندهار على نشر الأمن في قندهار؛ في يوليو ١٩٩٤م.

المحطة الثانية: مبايعة معظم طلاب المدارس الدينية للملا محمد عمر أميراً لهم، وتعاهدهم على جمع السلاح واستعادة الأمن والاستقرار، وإزالة نقاط التفتيش، وجمع الإتاوات؛ في أغسطس من العام نفسه.

المحطة الثالثة: نجاح الحركة في الاستيلاء على أكبر مخازن للأسلحة والذخيرة في أفغانستان في مديرية «سبين بولدك» الحدودية، والتابعة للحزب الإسلامي بزعامة حكمتيار؛ في شهر أكتوبر ١٩٩٤م.

المحطة الرابعة: نجاح الحركة الوليدة في استنقاذ قافلة إغاثة باكستانية مكوَّنة من ٣٠ حافلة تحت قيادة كولونيل من المخابرات الباكستانية؛ من بين براثن قطّاع طرق تابعين لجماعة جيلاني بزعامة منصور أغا في نوفمبر ١٩٩٤م، واستيلاؤها على قندهار، وذيوع أمرها وشأنها بعد ذلك.

المحطة الخامسة: مبايعة ١٥٠٠ من العلماء من مختلف أنحاء أفغانستان الملا محمد عمر أميراً، ولقَّبوه بأمير المؤمنين في ٣/ ٤/ ١٩٩٦م.

المحطة السادسة: الاستيلاء على كابل في ٢٧/ ٩/ ١٩٩٦م بعد انسحاب القوات الحكومية منها إلى الشمال، وبعد سلسلة من الهجمات التي تبدلت فيها التحالفات بين الميليشيات المختلفة، كالحزب الإسلامي والجمعية الإسلامية وحزب الوحدة الشيعي ودوستم وغيرها، وأعدمت الحركة ليلة دخولها كابل رئيس أفغانستان الشيوعي السابق نجيب الله؛ بعد أن كانت قتلت ـ على الأرجح ـ زعيم حزب الوحدة الشيعي عبد العلي مزاري.

الرواية الثانية: لا تختلف كثيراً عن الرواية الأولى سوى في أن لباكستان علاقة قوية بنشأة الحركة تتمثل في:

ـ الزيارة التي قام بها وزير الداخلية الباكستاني آنذاك الجنرال نصير الله بابر في جنوب أفغانستان وغربها في أكتوبر ١٩٩٤م؛ حيث التقى فيها القادة والمسؤولين في ولايتي قندهار ـ معقل الحركة ـ وهيرات.

ـ تبني المولوي فضل الرحمن أمير جمعية علماء الإسلام في باكستان، والذي كان يرأس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الباكستاني في حكومة بينظير بوتو لحركة طالبان؛ للحد الذي حدا بالمراقبين إلى تخويله حق «الملكية الفكرية» لإنشاء الحركة، وإلى إيراد رواية تقول بأنه هو الذي طرح فكرة إنشاء حركة طالبان، واستشار في ذلك برهان الدين رباني وعبد ربِّ الرسول سياف، وقد وافقا على إنشائها على اعتبار أنها ستوجّه ضربة قوية لقوات حكمتيار عدوهما اللدود حينذاك.

ـ مطالبة المولوي فضل الرحمن الرئيس الأفغاني برهان الدين رباني بتسليم الحكم والأسلحة التي بحوزته لطالبان في ٢١/ ٢/ ١٩٩٥م؛ أي قبل سقوط كابل بسنة ونصف السنة تقريباً.

ـ ما تردد من قبل ميليشيا أحمد شاه مسعود بما يفيد بأن عدداً من الضباط والجنود الباكستانيين كانوا يقودون ميليشيا طالبان ضدهم؛ لافتين إلى استخدام طالبان لسلاح الطيران من دون أن تكون قيادة الطائرات من ضمن تدريبات «طلبة العلوم الشرعية»!! وما قيل عن تسليح باكستان لطالبان وقوافل الأغذية والمؤن الواردة إليها من داخل باكستان[1].

(١) لاشك أن بعض الاتهامات تفتح العيون على الدعم الوارد لصاحب الاتهام نفسه؛ ذاك أن دعم باكستان «المسلمة» ـ على فرضيته ـ لا يناظره دعم روسيا «الأرثوذكسية» والهند «الهندوسية».

بيئة طالبان:

نشأت طالبان في بيئة باشتونية صلبة، أبناؤها شديدو المراس، حين يلهو مراهقوها وشبانها؛ يلهون بالجمر أيهم يقدر على تحمّل قبض يده عليه لأطول فترة ممكنة!! وعلى عكس ما يُروَّج؛ فإن طالبان تمثل النخبة المثقفة في أفغانستان إذا ما وضعنا في الاعتبار أن أكثر من (٩٠٪) من سكان أفغانستان هم من الأميين، وإذا وضعنا بالاعتبار أن جامعات أفغانستان التقنية كانت شبه معطلة أثناء سني الحرب بين فصائل «المجاهدين». صحيح أن هذه «النخبة» ليست كتلك الموجودة في القاهرة والرياض ودمشق وبغداد، إلا أنها تعبِّر عن طبيعة هذا الشعب الذي تربى بين أحضان الجبال ولم تألفه حياة المدنية ولا ألفها. وعلى هذا؛ فإن ما يُطلب من طالبان هو في الحقيقة أكبر بكثير من طاقاتها الفعلية، وما ينقمه بعض الدارسين العرب منها هو نفسه يستحق عقوداً من الإصلاح حتى يؤتي أكله؛ في بلد ظلَّت تشكو فيه طالبان لعلماء المسلمين الزائرين لها من وفاة ٤٠٠ طفل يومياً من دون أن يفعل لهم العالم شيئاً؛ حسبما ذكر الشيوخ (القرضاوي، وواصل، والراوي) إثر زيارتهم لأفغانستان في عام ٢٠٠١م، ليس في أفغانستان تكنوقراط حتى يحاسب الطلاب على إهمالهم واستبعادهم؛ بل كل ما هنالك شيوخ قبائل وعلماء دين وطلاب علم وأفراد شعب أمي يعمل في الزراعة، وينضوي بعضه تحت ألوية أمراء حرب لا يشترطون لجنودهم التخرج من جامعة كامبردج أو هارفارد!! بل إن بعضهم يحمل شهادة الأمية عن جدارة «كالجنرال» عبد الرشيد دوستم نائب وزير الدفاع الأفغاني الحالي الذي يكاد لا يتقن كتابة اسمه!!

إن حقائق الوضع الأفغاني الراهن كما يلي: فَقَدَ البلد مليون قتيل بسبب تلك الحروب، في حين تحول خمسة ملايين إلى لاجئين، وخلفت الحروب مليون أرملة ونصف مليون يتيم، أما الذين فقدوا أطرافهم من جراء الألغام فهم ٥٠ ألف شخص، وتقدِّر المصادر الغربية الألغام المبثوثة في كابل وحدها بما يتراوح بين ستة وسبعة ملايين لغم، حتى وصفتها صحيفة «تايمز» البريطانية بأنها أكبر مدينة ملغمة في التاريخ، وهذا كله لا يؤدي إلا إلى نشوء جيل وافر الحظ من الأمية والجهل والفقر!

التحديات التي لاقتها الحركة:

لم تكن حركة طالبان تسير ضد التاريخ ـ كما يقول الكاتب المعتزل هيكل ـ بل جاءت إفرازاً طبيعياً لواقع الأمة الأفغانية ببؤسه وشقائه. فقد عانت أفغانستان من حصار دام طوال مدة حكم طالبان اتساقاً مع إرادة أمريكية جامحة في غلظتها، ولم تعترف بالإمارة سوى دول ثلاث؛ هي باكستان والسعودية والإمارات العربية المتحدة ـ ألغت اعترافها ـ، فيما أحجمت باقي الدول الإسلامية عن الاعتراف بها تماشياً مع الرغبة الأمريكية آنفة الذكر. وظلت جميع الدول المجاورة لأفغانستان ـ باستثناء باكستان ـ تمد أعداء الإمارة بالسلاح والعتاد[1].

(١) مدت روسيا وحدها ميليشيا مسعود بمعدات عسكرية قبيل الغزو الأمريكي تقدر قيمتها بنحو ٥٠ مليون دولار؛ لإبقاء النار مشتعلة، وهو ما أدخل حركة طالبان في حرب استنزاف؛ كما جرى في جنوب السودان حتى أذعن نظام البشير لضغوط الغرب.

على أن من دواعي العدالة أن نثبت للإمارة الإسلامية (طالبان) إيجابياتها، ونرصد لها جملة من السلبيات التي أضرت بوجودها هي قبل غيرها، وأدت إلى وقوف جميع القوى في وجهها بمن فيهم من أبدوا لهم نوعاً من التعاطف من بعض الدول الإسلامية:

إيجابيات الإمارة:

١ ـ إعلانها عن دستور إسلامي يعلي العقيدة الإسلامية وشرائعها، وهو الدستور الذي تبلور في الكلمة التي ألقاها الملا عمر أمام العلماء في قندهار يوم ٤/ ٤/ ١٩٩٦م، وقد نشرت الحركة أهدافها[١] على النحو الآتي:

ـ إقامة الحكومة الإسلامية على نهج الخلافة الراشدة.

ـ أن يكون الإسلام دين الشعب والحكومة جميعاً.

ـ أن يكون قانون الدولة مستمداً من الشريعة الإسلامية.

ـ اختيار العلماء والملتزمين بالإسلام للمناصب المهمة في الحكومة.

ـ قلع جذور العصبيات القومية والقبلية.

ـ حفظ أهل الذمة والمستأمنين، وصيانة أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ورعاية حقوقهم المنصوص عليها في الشريعة الإسلامية.

ـ توثيق العلاقات مع جميع الدول والمنظمات الإسلامية.

ـ تحسين العلاقات السياسية مع جميع الدول الإسلامية وفق القواعد الشرعية.

ـ التركيز على الحجاب الشرعي للمرأة وإلزامها به في جميع المجالات.

ـ تعيين هيئات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع أنحاء الدولة.

ـ قمع الجرائم الأخلاقية ومكافحة المخدرات والصور والأفلام المحرمة.

ـ استقلال المحاكم الشرعية وفوقيتها على جميع الإدارات الحكومية.

ـ إعداد جيش مدرب لحفظ الدولة الإسلامية من الاعتداءات الخارجية.

ـ اختيار منهج إسلامي شامل لجميع المدارس والجامعات وتدريس العلوم العصرية.

ـ التحاكم في جميع القضايا السياسية والدولية إلى الكتاب والسنّة.

(١) موقع قناة الجزيرة.

- أسلمة اقتصاد الدولة، والاهتمام بالتنمية في جميع المجالات.
- طلب المساعدات من الدول الإسلامية لإعمار أفغانستان.
- جمع الزكاة والعشر وغيرهما وصرفها في المشاريع والمرافق العامة.

وهو كما يبدو لا يشي بهذه الانغلاقية التي توصم بها الحركة دائماً، بل يتحدث عن تعليم عصري، وعن علاقة جيدة مع مختلف الدول الإسلامية، واستقلال القضاء.. إلى ما هنالك، حتى إن بعض «ممنوعات طالبان» التي يتندر بها بعض الناس كمنع لعبة الطائرات الورقية؛ قد أفاد موقع «إيلاف» المسرف في علمانيته في تقرير له من باكستان يوم ٢٥/ ١/ ٢٠٠٤م أن هذه الهواية كثيراً ما تؤدي إلى حوادث عنف ومشاحنات بين المراهقين والمراهقات المتنافسين تودي أحياناً بحياة بعضهم.

٢ـ أنها وفرت لأفغانستان استقراراً لم تكن تحلم به خلال فترة وجيزة، وعن ذلك تقول الدكتورة نورهان الشيخ: «أعتقد أن توفير الأمن بعد ٢٠ سنة من الحروب الأهلية.. هذا في حد ذاته إنجاز ـ من وجهة نظري ـ... الحقيقة أن خمس سنوات في عمر الدول لا تُعَدّ شيئاً؛ بالإضافة إلى أن (طالبان) لم يبدؤوا في إطار دولة، عكسنا مثلاً، فمصر كانت دائماً دولة؛ فكان لها كيان ومؤسسات، وبالتالي كنا قادرين على امتصاص الأزمات مهما عظمت، ولكن في حال طالبان؛ فهي لم تكن دولة في الأصل.. ومن ثَمَّ؛ فإني أعتقد أنه نوع من التهور أن نحاسبهم على خمس سنوات، فهي فترة ـ من وجهة نظري ـ وجيزة جدّاً حتى نحاسبهم عليها، خصوصاً أنهم يعيشون حياتهم منذ أوائل السبعينيات في حروب مستمرة. وأنا أرى أن طالبان ـ بالرغم من أنها لم تنجز أعمالاً ملموسة على الصعيد السياسي؛ فإنها بدأت تبلور على الأقل توجهات معينة في اتجاه العالم، فبدأت تأخذ مواقف معينة تجاه قضية معينة.. وهذا ـ إلى حد ما ـ يعتبر سياسة توجه خارجي معين».

ويقول رئيس الاستخبارات الباكستانية السابق حميد جول قبيل الغزو الأمريكي لأفغانستان في عام ٢٠٠١م: «حكومة طالبان رسخت سيادة القانون في أفغانستان، وأوقفت تجار السلاح والمخدرات، وأسست القوة أو السلطة المركزية حول (٩٥٪) من أفغانستان، ويعتبر هذا إنجازاً ممتازاً ومجيداً من وجهة نظر باكستان، وبعض اللاجئين رغم الظروف الشاقة التي سادت في السنوات الثلاثة.. فإن عدداً كبيراً من اللاجئين قد يعودون الآن، وقد أدهشني وسرني في أغسطس من هذا العام عندما دُعيت إلى مشاهدة العرض العسكري في أغسطس، شعرت بسعادة غامرة لأني تركت باكستان في عام ١٩٩٥م، وعدت إلى أفغانستان بعد ٦ سنوات ونصف العام، وعندما رأيت كابل ليلاً شعرت بدهشة وسرور؛ لأن الكهرباء عادت إلى جميع البيوت، وكانت هناك مياه جارية ومياه قابلة للشرب، ومتاحة تقريباً لكل البيوت، والطرق تم تعبيدها، وكان هناك زراعة الأشجار، كانت الظروف تشير إلى السلام».

٣ـ أنها استطاعت في فترة وجيزة توحيد البلاد وجعلها أمة مرهوبة من جيرانها؛ بعد أن صارت كلأً

مستباحاً لكل عابث من الدول المحيطة بها، وعن ذلك يقول الكاتب الفلسطيني علي صبري (وللمفارقة هو من مؤيدي الزعيم الشمالي الراحل أحمد شاه مسعود): «أَنْ تعبث الحركة بالبلاد سياسياً واجتماعياً ـ إن كانت تعبث ـ خير من توالي مشاهد الحرب وفصول الدمار إلى ما لا نهاية»، ومن نافلة القول أن تعداد جيش طالبان تضاربت الأقوال حوله ما بين ٤٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف قُبيل بدء الغزو الأمريكي؛ إضافة لنحو ٣٠٠ دبابة ومدرعة، وعدد غير معلوم من الطائرات، وهي أرقام كبيرة على كل حال إذا ما قيست بقوة المنافسين.

٤ ـ أنها قضت على الإرهاب في ربوع أفغانستان، ونجحت في استيعاب المتطوعين العرب الذين أوشكت إجراءات رباني غير المدروسة أن تبعثرهم خارج أفغانستان؛ بما يعيد كرة العنف والعنف المضاد في الدول العربية. يقول الدكتور سفر الحوالي: «أي ذنب لطالبان في إيجاد إرهابيين مزعومين، وهي إنما جاءت متأخرة عن نشأتهم وعن قدومهم للبلاد، وكانت معزولة عن منهجهم وعن فكرهم، جاءت وقد نبذتهم حكومة الأحزاب، وتنكرت لهم وجحدت جميلهم؛ فأحسنت إليهم وإلى العالم الإسلامي والعالم كله (. . . حيث قامت الحركة بضبط) من بقي منهم في أفغانستان، فبعد أن كانت الأمور فوضى أيام الأحزاب، وكان يمكن أن تتحول البلاد فعلاً إلى مفرخة للغلاة من كل جنس؛ جاءت طالبان لتفتح لهم المساجد والحلقات ليتعلموا ويعلِّموا، وتفاهمت مع الحكومات ذات العلاقة بشأنهم؛ بأن تعهدت ألاّ تسمح بعمل أي شيء ضدها، وأبلغتهم أنها اشترطت ذلك عليهم، وفي حالة ثبوت مخالفتهم لهذه الشروط فهي ستحاكمهم أو تسلمهم لحكوماتهم!».

٥ ـ أنها قضت على زراعة الأفيون بنسبة كبيرة تدريجياً، بدأت من ٤٩٠٠ طن أفيون إلى ١٨٥ طناً، وليس بوسعها منعها كلية لما لدى الأفغان من أرض شاسعة ووديان سحيقة وحدود مفتوحة؛ تؤهل جميعها لوجود هذه الزراعة، وهذا تواترت الأخبار عليه من وفد العلماء الذي اطمأن لأقوال شهود ثقات لديهم ـ وربما بعض الشهود لا يستريح لحكم طالبان بحسب الوفد ـ ومن الأمم المتحدة ومن جهات أممية عديدة.

٦ ـ أنها سعت لنوع من الاستقلال الاقتصادي عن فلك الولايات المتحدة، فحاولت أن تمنح احتكاراتها النفطية لشركة أرجنتينية، كما أنها قضت على أثرياء الحرب بما كان يمضي بها إلى سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية، وترددت أنباء قُبيل الغزو تفيد بأن الملا عمر قد عرضت عليه الولايات المتحدة الأمريكية رشوة تقدر بـ ١٠٠ مليون دولار لمنح الاحتكار النفطي لشركات أمريكية لكنه رفضها.

٧ ـ أنها قضت على بعض المفاسد، وحاربت البدع وعبادة القبور على نحو مشابه لما قام به الإمام محمد بن عبد الوهاب في نجد بالجزيرة العربية قبل أكثر من ثلاثة قرون، حيث عادت بعض هذه المظاهر مجدداً لأن الأفغان كانوا حديثي عهد بحسبة طالبان.

٨ ـ أنها عملت على النهوض بالتعليم على نحو لم يسبق له مثيل خلال الأعوام العشرين السابقة لها،

وهذا ما شهد به الشيخ الدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية المصري الأسبق، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي الداعية المشهور لدىٰ زيارتهما لأفغانستان للتباحث بشأن هدم الحركة لتمثالي بوذا؛ حيث أفادا بأن دارسي الطب في جامعاتها كانوا يتجاوزون ١٢٠٠ طالب.

٩ ـ أنها حاربت وبكل قوة حركات التنصير المستترة بأعمال الإغاثة الإنسانية.

١٠ ـ أنها أصبحت قاعدة خلفية للمجاهدين الشيشان والكشميريين والطاجيك والأوزبك.

١١ ـ أنها كانت تعلي قيمة العدل حتىٰ مع أعدائها، ولقد أثار ذلك إعجاب كثير من الصحفيين وأعضاء منظمات الإغاثة.

سلبيات الإمارة:

١ ـ الموقف غير الواضح من التنظيمات العسكرية المنضوية تحت إمرتها؛ إذ لوحظ أن تنظيم القاعدة علىٰ ما يبدو ظل يعمل داخل أفغانستان بشكل شبه مستقل، وربما ورط دولة إسلامية وليدة بكامل هيئاتها في عمل لم تكن مهيأة لتداعياته، هذا إذا سلمنا بمسؤولية القاعدة عن أحداث ١١ سبتمبر، وبعدم معرفة الملا عمر لمخططات ابن لادن مسبقاً أو معرفته وإقرارها، وإذا سلَّمنا جدلاً بأن الولايات المتحدة كانت عازفة عن ضرب الإمارة الإسلامية قبل ١١ سبتمبر[1].

٢ ـ استفزازها لجميع القوىٰ الدولية والإقليمية الفاعلة بما استعدىٰ عليها الجميع، وعدم نجاحها في اختراق الحصار الدبلوماسي عليها بقدر معقول من البراجماتية.

٣ ـ عدم نجاحها في اكتساب الحركات الإسلامية السياسية والمنظمات الإسلامية العالمية في صفها؛ لتوفير قدر عال من الاختراق الإعلامي والاقتصادي للعالم الكاره لأيديولوجيتها.

٤ ـ جنوح بعض أقطابها إلىٰ خطاب إعلامي متشدد أحياناً؛ وخاصة خلال أزمة تمثالي بوذا، والتي كان من الممكن إنهاؤها بهدم التمثالين دون هذا اللغط الذي استفاد منه الأعداء جيداً، وعدم إدارتها المعركة الإعلامية بشكل جيد.

استراتيجيات القوى الدولية والإقليمية في أفغانستان:

ما من شك أن استراتيجيات القوىٰ الدولية والإقليمية والمحلية في أفغانستان؛ قد طرأ عليها تغيير كبير قبل ظهور طالبان، وبعد استيلائها علىٰ سدة الحكم هناك، وبعد رحيلها بفعل الغارات الجوية الأمريكية، ثم بعد

(١) تشير بعض الدلائل القوية إلىٰ أن الولايات المتحدة كانت تخطط لضرب الدولة الوليدة تحت أي ذريعة مثلما فعلت مع العراق دونما سبب ممكن، وفي ذلك يقول الأستاذ فهمي هويدي ـ وهو أيضاً من منتقدي طالبان بشكل عنيف ـ: «هذه الحرب معدَّة منذ زمن؛ وأنا أستشهد بعددين من NEWSWEEK في شهر فبراير(٢٠٠١م)، حيث بعثوا طائرة أمريكية تجارية في رحلة مباشرة إلىٰ أوزبكستان؛ لتعرف كيف يحدث الإنقاذ، فتلك الخطط موجودة ومنشورة».

ظهور دلائل قوية على احتمالات عودتها من جديد، وإذا كنا أشرنا لهذه الاستراتيجيات قبل ظهور طالبان؛ فإن ما يهمنا الآن هو التعرض لهذه الاستراتيجيات في وضعها الحالي، والذي يتمحور حول:

- رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في الانفراد بتسيير أمور أفغانستان؛ لمنع تكرار «تغوّل» تنظيم القاعدة إلى الحد الذي بدا عليه في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

- طموح الولايات المتحدة في التحكم بمسار أنابيب النفط المزمع مدها عبر أفغانستان إلى أوروبا من بحر قزوين، ومن ثَمَّ فرض شروطها المستقبلية على أوروبا باحتكارها لشرايين النفط في العالم كله تقريباً.

- طموح الولايات المتحدة الأمريكية في حجز مكان لها على بحر قزوين وفي طريق الحرير الدولي.

- إصرار الولايات المتحدة على خنق باكستان «النووية»، وتقوية الطرف الهندي عليها عبر استمرار الوجود الأمريكي في أرضها، ويذكر في هذا الصدد أن الولايات المتحدة - بعد انتهاء الحرب الباردة - أدارت ظهرها لباكستان «المسلمة» بعد أن كانت حليفتها الرئيسة لفترة خلت، واستبدلت بها الهند التي يؤكد «فكتور جوباريف» الباحث في معهد كاتو الاستراتيجي الأمريكي في دراسته قبل عام من أحداث ١١ سبتمبر ضرورة التحالف الأمريكي مع الهند. إلى ذلك؛ فإن الأصوات الأمريكية المحافظة لم تزل تحذر في واشنطن خشية من هيمنة الإسلاميين على «القنبلة النووية الباكستانية».

- انزعاج الولايات المتحدة من نضوب «شريان الأفيون» إلى حد بعيد خلال حكم طالبان[١].

وتجدر الإشارة إلى أن زراعة الأفيون في العالم طالما حظيت بدعم مباشر من جهاز الاستخبارات الأمريكي C.I.A، وجهاز الاستخبارات الباكستاني I.S.I، وأكد هذه المعلومة الكاتب محمد حسنين هيكل الذي أورد في مقال «واشنطن تؤذن للجهاد» بمجلة (وجهات نظر)؛ أن ريجان استقبل بعد حفل تنصيبه رئيس المخابرات الفرنسية الخارجية (SDECE) ذائع الصيت الكونت «ألكسندر دي ميرانش»، وأن ضيفه قد اقترح عليه ضرورة نقل مضبوطات المخدرات في الولايات المتحدة إلى آسيا الوسطى، ومن ثَمَّ إعادة تهريبها للجنود الروس لإضعاف قدراتهم القتالية، وأن هذه الميكيافيلية الأمريكية قد جرى تنفيذها بالفعل إلى الحد الذي جعل أفغانستان تمد العالم بـ (٧٠٪) من «الأفيون»؛ وأدى ذلك إلى تحكم جهازي الاستخبارات الأمريكي والباكستاني في الأفيون الأفغاني ومن ثم العالمي، وهو ما أدى إلى حصول الولايات المتحدة على أموال كثيرة في وقت تستفيد فيه من نشر المخدرات في هدم شعوب أعدائها.

---

(١) تشير مجلة المجتمع الكويتية في عدد ١٥٨٣ شهر يناير ٢٠٠٤م؛ إلى تقرير لاحظ الفارق الكبير بين سعري الهروين في أفغانستان والولايات المتحدة ٥٠٠٠ إلى ١٥ ألف دولار داخل أفغانستان، وفي أمريكا وأوروبا ٥٠ ألف دولار للكيلو الواحد، نقول: عشرة أضعاف السعر تستفيد منه شركات الأدوية ومافيا المخدرات المرتبطة بالـ C.I.A؛ إضافة إلى تدمير كل مدمني «طريق الهيروين»: باكستان - إيران - تركيا - دول البلقان، ويا للمصادفة؛ كلهم مسلمون!

ويعزز ذلك ما قاله عميد الصحفيين البكستانيين «محمد رشيد» من «أن الإشارة واضحة هنا إلى المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية»؛ مورداً نماذج واقعية اضطرت فيها السلطات الباكستانية تحت ضغوط دولية إلى التبرؤ من عمليات الأفيون، ونقل بعض ضباطها الذين أشارت إليهم تقارير الأمم المتحدة بالاسم إلى مواقع أخرى؛ مضيفاً أن بعض ضباط مكاتب مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة في «بيشاور» اضطروا إلى الاستقالة من وظائفهم كنوع من الاحتجاج؛ لأنهم اكتشفوا أن المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية تعرقل جهودهم(١).

كما يعزز ذلك ما ذكره الباحث الأمريكي «ألفرد ماكوي» في دراسة له بعنوان (أربعون سنة من تورط الـ C.I.A في تجارة المخدرات) من أن هذا الجهاز كان له دور محوري في دعم المزارعين الأفغان لزيادة المساحات المزروعة بنبات الخشخاش إبان الغزو الأفغاني لأفغانستان، ويضيف ماكوي: «لم يمض عامان فقط على انطلاق عملية C.I.A السرية في أفغانستان حتى أصبحت المنطقة الحدودية الباكستانية ـ الأفغانية أكبر منتج عالمي للهروين مزودة الولايات المتحدة وحدها بـ (٦٠٪) من الطلب. . . وقفز عدد مدمني الهروين في باكستان من صفر عام ١٩٧٩م إلى ١,٢ مليون نسمة عام ١٩٨٥م؛ ليرتفع الآن إلى مليوني نسمة على الأقل»، هذا يذكرنا بلا ريب بحرب الأفيون ١٨٣٩م ـ ١٨٤٢م، والتي جهدت فيها بريطانيا (الدولة الأم لأمريكا) التي كانت تحتل الهند حتى أرغمت الصين على الإذعان لمطالبها بإدخال الأفيون لها قهراً؛ حتى تدمّر البنية الجسمانية لأفراد شعبها لا سيما المجندين منهم، وهو نفسه ما تكرره الولايات المتحدة اليوم عبر تدمير الشعوب الإسلامية من أفغانستان إلى البلقان ـ حيث امتدادات شبكات تهريب المخدرات التابعة للجهاز الأمريكي الاستخباري ـ مروراً بباكستان وإيران ودول آسيا الوسطى.

للأهمية: تحتل أفغانستان هذا العام ٢٠٠٣ م المركز الأول في زراعة الأفيون (٧٧ ٪) من الإنتاج العالمي، وإذا وضعنا بالاعتبار أن الولايات المتحدة عبر الـ C.I.A تحقق مكاسب كبيرة من فروق السعر بين أفغانستان ودول أوروبا والعالم، والتي ذكرناها فيما تقدم من حجم تجارة الأفيون في العالم، والتي تتجاوز ٧٠٠ مليار دولار في العام نفسه؛ أدركنا أن الولايات المتحدة ومن ورائها الصهيونية العالمية تضرب عصفورين بحجر واحد إذ تدمر المسلمين (والأمميين) وتحقق أرباحاً فلكية، وليذهب حينئذ الملا عمر «إلى غير رجعة» ـ وفق أمريكا ـ الذي منع هذه الزراعة الرابحة (سواء على نطاق ترويج المخدرات أو حتى في صناعة الدواء).

ـ رغبة باكستان في وقف المد الشيعي الإيراني القادم من شمال أفغانستان، والذي يدعم العديد من الفصائل الأفغانية الشيعية.

ـ حاجة باكستان إلى إقامة علاقات تجارية مع دول وسط آسيا المستقلة حديثاً عن روسيا عبر أفغانستان التي تعتبر بوابة شبه القارة الهندية نحو وسط آسيا، والتي تتصادم معها في حال عدم الاستقرار الناشئ عن حكم الأقلية في أفغانستان.

---

(١) في كتابه (طالبان)، (صفحة ١٢١)، بالوقائع والأسماء.

ـ رغبة باكستان في رحيل سريع لقوات الولايات المتحدة، حيث أدىٰ وجودها إلىٰ اهتزاز كرسي الحاكم الباكستاني العسكري برويز مشرَّف، وإظهاره، بنظر المعارضة والشعب الباكستاني، بمظهر من يقدِّم مصلحة الولايات المتحدة علىٰ مصلحة باكستان القومية.

ـ تخوف إيران من فقدان منطقة خراسان شمال شرق البلاد؛ كنتيجة لعدم وجود حكومة قوية في كابل؛ مما قد ينشأ عنه انفصال الجزء المحاذي لها؛ بما يسير بطريق إحياء حلم قديم ما زال يراود بعض القوىٰ؛ وهو قيام خراسان الكبرىٰ؛ فضلاً عن أن أفغانستان إحدىٰ دول الجوار الجغرافي لإيران، وتدخل في مجال أمنها القومي؛ وهو ما يدفعها إلىٰ ضرورة السعي نحو تجنب إقامة نظم معادية لها في أفغانستان؛ علاوة علىٰ الحرص الذي تبديه إيران علىٰ وحدة أفغانستان علىٰ أن تكون في إطار يسمح بتأمين وضع الشيعة هناك، والإبقاء علىٰ نشاط «حزب الوحدة الإسلامي» الشيعي، والحاجة إلىٰ الحفاظ علىٰ المصالح الإيرانية في منطقة آسيا الوسطىٰ والقوقاز من الناحية الاقتصادية.

ـ مخاوف روسيا و طاجيكستان من عودة طالبان من جديد، وقد تجسدت تلك المخاوف في وجود ٢٥ ألف جندي روسي علىٰ الحدود الطاجيكية/ الأفغانية؛ لمواجهة المتمردين الطاجيك الذين يتخذون من الأرض الأفغانية قاعدة لهم، كما يكرس تلك المخاوف أن عدد الطاجيك الأفغان المنتشرين علىٰ الحدود يصل إلىٰ حوالي ٥ , ٣ ملايين نسمة، وهؤلاء يشكّلون أرضاً خصبة لأي أفكار أو آراء تتسق مع توجهات حركة طالبان في أفغانستان، ومن ثَمَّ احتمال تنامي ظاهرة طالبان ليس فقط في طاجيكستان، ولكن أيضاً في أوزبكستان؛ بيد أن هذه المخاوف تتعارض مع رغبة موسكو في رحيل الولايات المتحدة الأمريكية عن تخومها.

ـ مخاوف الصين من استمرار وجود القوات الدولية بزعامة الولايات المتحدة في أفغانستان وعودة طالبان علىٰ حد سواء؛ غير أن الصين تبدو سعيدة بتورط الولايات المتحدة في حرب استنزاف بأفغانستان ـ كما في العراق ـ لإضعافها علىٰ المدىٰ المنظور.

العوامل التي تؤثر في مستقبل الصراع الأفغاني:

هناك العديد من العوامل التي تؤخذ بالاعتبار عند ملاحقة المستقبل المنظور للمسألة الأفغانية، وفي القلب منها حركة طالبان الإسلامية الباشتونية، والتي نرىٰ لها تأثيراً كبيراً في مجريات الصراع الدائر في أودية أفغانستان وأعلامها الشماء. ولا يستطيع المتابع للشأن الأفغاني إغفال وجود إرهاصات كثيرة تشي ببزوغ حركة طالبان من جديد، وإن لم يكن ذلك علىٰ النحو الذي سطعت به أول مرة، هناك انتصارات عسكرية باهرة تحققها الحركة في حرب العصابات التي تشنها، ومعها كثير من المتطوعين العرب، علىٰ قوات الاحتلال الدولية في أفغانستان (أمريكية كانت أو من دول غربية أخرىٰ) وقوات المرتزقة الأفغانية الموالية لها، وهو ما يذكرنا بتلك الفترة التي سبقت رحيل قوات الغزو السوفييتية العليلة؛ بيد أن هذه الانتصارات لا تؤدي إلىٰ رحيل عاجل للقوات الأمريكية وأتباعها إلا إذا رافقها العديد من العوامل الأخرىٰ الحافزة علىٰ رحيل المحتلين وأذنابهم من

فوق الثرىٰ الأفغاني، وبمقدورنا أن نسجل تلك العوامل فيما يلي:

أولاً: مدىٰ قدرة حركة طالبان علىٰ الصمود في وجه محاولات شقِّ صفوفها من قِبَل الولايات المتحدة وأزلام الاحتلال.

ثانياً: قدرة الحركة علىٰ استيعاب كل القوىٰ الرافضة للاحتلال داخل العرق الباشتوني المهمش، وإذكاء هذا الشعور القبلي إلىٰ جوار خطابها الإسلامي التعبوي.

ثالثاً: قدرة الحركة الطلابية الأفغانية علىٰ مدِّ جسور الثقة من جديد مع أطراف داخل المؤسسة الاستخبارية الباكستانية، وتقديم نفسها دائماً علىٰ أنها الطرف الوحيد المساند لطموحات باكستان في أفغانستان والممثل للأغلبية الباشتونية التي تُعَدُّ ميزان استقرار أفغانستان.

رابعاً: قدرة حركة طالبان علىٰ المناورة السياسية مع الأطراف الخارجية؛ عبر تقديم شخصيات تظهر كوجوه معتدلة يمكن «التعاطي معها سياسياً».

خامساً: قدرة حركة طالبان العسكرية علىٰ تحييد الطيران الأمريكي المنخفض (مثلما فعل العراقيون إلىٰ حد بعيد حول بغداد والفلوجة، والأفغان مع السوفييت عندما نجحوا عام ١٩٨٧م في إسقاط نحو ٢٠٠ طائرة سوفييتية).

سادساً: قدرة الحركة علىٰ تفعيل حرب العصابات التي تشنها علىٰ الأمريكيين وتطويرها إلىٰ حرب استنزاف قوية.

سابعاً: قدرة الحركة علىٰ نقل معركتها الإعلامية مع الاحتلال إلىٰ حيز العالمية، ونعني بذلك فضح الخسائر الغربية في المعارك علىٰ نطاق يتجاوز التعامل مع جهة إعلامية واحدة، ونعني به أيضاً إظهار وجه الحركة علىٰ حقيقته بعدما نجحت الولايات المتحدة الأمريكية إلىٰ حد بعيد في تشويهه.

ثامناً: قدرة الحركة علىٰ الاستفادة من استراتيجية المحتل الأمريكي النفطية والسياسية والعسكرية في منطقة آسيا الوسطىٰ واستغلالها.

الدور الإسلامي المنتظر في الصراع الدائر:

إزاء الصراع الدائر في أفغانستان لا بد أن تختزل الأمة الإسلامية وطليعتها الناشطة الصراع الدائر في أفغانستان في مفرداته الأولية، وهي اعتداء فاحتلال فتغييب لهوية الأفغان، وسحق حلمهم الإسلامي الوليد. فبعيداً عن المماحكات الجدلية عن صدق تمثيل طالبان لوجه الإسلام وصحوته أو لا؛ يبقىٰ التغافل عن الصراع الدائر في أفغانستان والتماهي مع توجهات الإعلام الغربي في دفن التحدي الذي بات يمثله المقاومون للاحتلال الأمريكي في أفغانستان؛ نوعاً من خذلان جهة تستنزف المارد الأمريكي بعيداً عن المنطقة العربية حيناً من الدهر علىٰ أقل تقدير. وسنفترض جدلاً أن الولايات المتحدة الأمريكية تورطت بالحرب ضد كوريا الشمالية؛ كنا لا شك سنجد في هذه الحال تعاطياً إعلامياً من الإسلاميين أوفر حظاً «لعدالة المقاومة الكورية»، وتغطية أوسع

لهذه المقاومة! وغالب الظن أن بعض الجهات الإسلامية التي أصمّت مسامعنا بحديثها عن «تشويه طالبان لصورة الإسلام الحضاري؛ بتعاملها الصارم في قضايا لحى رجال أفغان، وحبس المرأة في المنزل، وهدم صنمي بوذا العملاقين، ومنع البث التليفزيوني وشراء أجهزة التليفزيون، وإغلاق دور السينما...»؛ هؤلاء من جهة، وأولئك الذين فتشوا في قلوب الطالبان فوجدوها تسفر عن «ماتريدية مبتدعة»!! هذه الجهات كانت ستضرب عن ذكر أيديولوجية الكوريين الشيوعية/ البوذية صفحاً لاعتبار أن ما يجب أن يستحوذ على إعلامنا الإسلامي في هذه المرحلة؛ هو فضح الهمجية الأمريكية واعتداءاتها السافرة على دول آمنة!! إنه قد استقام المنسم؛ فبدا بما لا يدع مجالاً لشك أن المقاومة الأفغانية للوجود الأمريكي على أرض مسلمة مغتصبة لا تملك سوى أدوات إعلامية جد بدائية للتصدي للمعركة الإعلامية التي يشنها الغرب باقتدار على الأفغان البسطاء. وإذ بدا الأمر كذلك تجلت ضرورة أن يحمل هَمَّ الأفغان الإعلامي مَنْ هُم على الأقل يفوقونهم حنكة وسعة أفق وحركة.

وإزاء هذا المنعطف الخطير الذي تمر به الأزمة الأفغانية؛ يحدونا الأمل في أن نولي هذه النقاط حظاً من الاعتبار عند الحديث عن مساندة الحق الإسلامي في أفغانستان:

لا بد من التفريق دوماً بين اعتداء الدولة العظمى في العالم على دولة فقيرة واستباحة أرضها، ونشر المخدرات في معظم حقولها إضراراً بكل مسلمي آسيا الوسطى والجنوبية كذلك، وتهديدها لقدرات دولة مسلمة مجاورة (باكستان)، ولجم طموحاتها العسكرية لمصلحة دولة الهندوس الكبرى، والاستقواء على العالم عامة والمسلمين خاصة؛ بالتحكم في معبر نفطي مهم بعدما استتب لها الأمر باحتلال العراق في السيطرة على أكبر مركز نفطي في العالم، لا بد من التفريق بين ذلك وبين الممارسات المنسوبة لتنظيم القاعدة في بعض الدول العربية، والتي هي في مجملها ليست محل ترحيب ولا تأييد من مجمل الفعاليات الإسلامية في الدول العربية الكبرى، ومن هنا كان الخجل من تثمين دور المقاومة الأفغانية ومساندتها إعلامياً نوعاً من خذلان جهة ليست في وارد العداء مع الدول العربية والإسلامية بكل تنوعاتها، وإذا كان الأمريكيون أنفسهم يبدون نوعاً من المرونة البراجماتية في تعاملهم مع مَنْ يصفونهم «بمعتدلي طالبان»؛ فإن واجب الإسلاميين - أو حتى دولهم - ألا يكونوا «ملكيين أكثر من الملك».

وخلاصة القول: إن هناك فارقاً بين اختلافنا مع رؤى وتوجهات القوم - إن وجد - وبين عدالة قضيتهم التي ينبغي أن تكون محل إبراز من مجمل القوى الإسلامية في الساحة العربية وخارجها، وفي هذا الإطار تبرز أهمية التحول - عوض الانخراط في النقد المزمن - إلى البحث عن مكامن الضعف في السياسة التي تنفذها الولايات المتحدة ومجموعة كارزاي في أفغانستان؛ ومن ثَمَّ الاستفادة من قصورها؛ كاستبعاد أكثرية الباشتون من المعادلة الأفغانية بما يتناقض مع أبسط القواعد الديمقراطية، والمقارنة الدائمة بين أفغانستان في أثناء حكم «الإمارة الإسلامية» وأثناء حكم «الولاية الأمريكية»؛ لجهة انتشار المخدرات (من إنتاج ١٨٥ طناً فقط من الأفيون في عام ٢٠٠١م إلى ٣٦٠٠ طن في عام ٢٠٠٣م)، وهيمنة الـ C.I.A على «ثروة الأفيون» في أفغانستان التي تقدر بنحو ٢٠٠ مليار دولار سنوياً، ولجهة ذيوع ظاهرة قطاع الطرق وفرض الإتاوات بسبيل المسلمين من جديد بعد أن سحقتها طالبان من قبل.

لا بد من غرس نوع من الوعي الإسلامي عند مساندة أي قضية إسلامية، يقع في المنطقة المتوسطة بين التفاؤل الساذج الذي يحوي في طياته الترحيب والتصفيق لانتصارات وهمية يروج أخبارها أفغان مبالغون أو وضَّاعون مسيئون، وبين الإحباط المقعد الناشئ عن إحسان الظن بما تروّجه الآلة الإعلامية الصهيونية المحترفة في التدليس نفسه، وهذه المنطقة المتوسطة هي تلك المتسقة مع قواعد مصطلح الحديث وتعديل الرواة وتجريحهم، وهي التي توفر للمسلمين نوعاً من الاستقلالية في الفكر والرؤية؛ وهو ما يحملها حينئذ إلى مساندة أي قضية بقدر من الوعي بمفرداتها على نحو جيد، وهذا يقود بالضرورة إلى أهمية العمل على توافر إعلام إسلامي مستقل؛ لا يدع نفسه نهباً لزبالات الوكالات العالمية التي يتحول معها المتلقون بثقة وافرة أغناماً يسوقهم الراعي الأمريكي، ويسوقهم حادي الوكالات الصهيونية، وإنما الواجب على الإعلام الإسلامي أن يتحرك وفق رؤيته هو، وقواعده هو، ووعيه هو، ومن ثم ينقل الأمة من ورائه إلى أن تحمل الهم نفسه بالقدر المتوافر له من الوعي.

ثمة قاعدة عظيمة أرساها النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «.. استعن بالله ولا تعجز..»، وهي قاعدة عدم التمحك بالأعذار الواهية في عدم مدِّ يد المساعدة «الإنسانية» الإغاثية، وكلمات النصح من العلماء المخلصين؛ حتى لا يترك أصحاب كل قضية ساخنة وحيوية في العالم نهباً لمعطياتهم الفكرية والمادية والعلمية المحدودة، وكما يبدو في الحديث؛ فإن العجز هو حالة ذاتية يتوهمها الإنسان بنفسه من دون أن تكون بالضرورة حاكمة لإرادته، ولا يفوتنا أن المسلمين خلال سنوات ستالين التي حكمهم فيها بالحديد والنار استطاعوا أن يحافظوا على هويتهم، وأن يتخذوا «بيوتهم قبلة» ومدارس وكتاتيب، وإذا لم تكن الحالة بهذا السوء لا في أفغانستان ولا في غيرها؛ فإن المطلوب الآن أن يفعّل دور التوعية الإسلامية داخل مخيمات اللاجئين الأفغانية وداخل أفغانستان، وأن تعي الصحوة الإسلامية في باكستان وأفغانستان ضرورة الحفاظ على الهوية الإسلامية لشبان الأمة تحت نير الاحتلال، وألا تجعل همها كله ينصب على العمل المسلح الذي لا يتوفر له شروط النجاح من دون تأسيس تربوي سليم؛ لأن هناك هامشاً كبيراً متاحاً للعمل لا نراه مستغلاً حتى الآن على نحو يتماشى مع طموحات أمتنا العظيمة، ويستلهم معنى هذا الحديث العظيم.

على الصحوة الإسلامية عموماً وفي أفغانستان خصوصاً؛ أن تحذر أشد الحذر من لعبة «المتشددين والمعتدلين» التي يمارسها الغرب وإعلامه معها، نعم بمقدورها أن تلعب هي في هذه اللعبة بذكاء لكن من دون أن تسمح بثغرات ينفذ منها أعداؤها لشق صفوفها، والمراقب للشأن الإسلامي سيلحظ أن هذه اللعبة تنفذ مع كل حركة وكل صوت إسلامي بارز في العالم؛ فقد قيلت عن حركة حماس وقيلت عن طالبان وقيلت عن الإخوان المسلمين المصريين وقيلت عن الجبهة الإسلامية الجزائرية.. وهكذا دواليك تعلو تلك النعرة كلما برزت حركة إسلامية وبانت قوتها، فعلى الصحوة أن تسمو بصوت الوحدة فوق محاولات شقها، وتحيط خلافاتها الداخلية بدرجة عالية من الانضباط الإداري.

هناك ضرورة أن تعمل المقاومة الإسلامية على الاستفادة من توفر الشعبية لها، وبهذا الخصوص نقول إن

قضية تمتع أي حركة بشعبية معتبرة ـ حتى لو كانت إسلامية قبلية؛ كحالة طالبان ـ يحميها كثيراً من غائلة الاستئصال، ولذا فإن الصحوة في أفغانستان مدعوة للحفاظ على شعبيتها وديمومة طرحها للشعب الأفغاني كصاحبة مشروع حضاري حقق ما لم يحققه الأمريكيون في أفغانستان، لا أن تقدم نفسها للشعب بوصفها حركة مسلحة فحسب؛ ذلك أن الأفغان سئموا من ٢٠ عاماً يبيتون فيها على أصوات زخات الرصاص، ويصبحون فيها على أصوات المدافع، ومن حقهم أن يُقدَّم إليهم من الإسلام ما هو أكثر من «فتاوى الجهاد». فمن عوامل انتصار أي حركة أن تسلب شعبية الخصم وتلتحف هي بالتأييد الشعبي، وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن أكبر ما يزعج الكيان الصهيوني من حماس ليس حجم عملياتها العسكرية؛ بقدر ما يزعجه مئات الآلاف الذين يخرجون في شوارع غزة مؤيدين لسياستها، فبإمكان أي قائد مطلوب اغتياله من حركة حماس أو الجهاد ـ ولو كان من جناحيهما العسكريين ـ؛ أن يظهر في تظاهرة حاشدة علانية من دون أن يخشى غائلة الصهاينة لثقته في استحالة إقدام الكيان الصهيوني على قصف تظاهرة بأحجام كبيرة.

لا بد للصحوة من التذكير دوماً بأن الولايات المتحدة تسبح ضد تيار الهوية الإسلامية للشعب الأفغاني وتهمش الأغلبية الباشتونية، وأن من يسبح ضد تيار التاريخ لا يصل إلى مبتغاه وإن طالت سباحته.

أهم المصادر:

- موقع قناة الجزيرة.
- قناة الجزيرة الفضائية.
- مجلة (وجهات نظر) القاهرية.
- الدكتور عبد الله عزام، كتاب (آيات الرحمن في جهاد الأفغان).
- جريدة (العروبة) الأمريكية.
- مجلة (الوطن العربي) الباريسية.
- فهمي هويدي، كتاب (طالبان جند الله في المعركة الغلط).
- موقع إسلام أون لاين.
- موقع الدكتور سفر الحوالي.
- موقع الإمارة الأفغانية.
- موقع إيلاف.
- موقع مفكرة الإسلام.
- موقع تقرير وزارة الخارجية الأمريكية.